الليلة التي لم ينم بها أحد

٨

ديسمبر

للكاتبة نور أنس طيارة

الإهداء

إلى الأرواحِ التي لم تشهد النصر لكنها كانت جزءًا منه "شهداء سورية"

أهدي إليكم هذهِ الكلمات

حياةُ القيد

مكبلون نحن، كلمتان تصفان حالَ شعبي الذي لطالما كبل فكره ولسانه.
سنوات من القهر عشناها بكل تفاصيلها، خلدت فينا ذكرياتٍ لا يمكن نسيانها، والأصعب من هذا الدموع التي تترافقُ مع استحضارها.
هل تخيلت يوماً أن تمنع من حقِ التفكير؟ حق انتقاد ما يؤذيك؟
تخيلت يوماً أن يمنعك أحدٌ من أحلامك فقط لأنه "واصل"؟
كل هذهِ التخيلاتِ كانت حقيقة في سوريتي، بلدي التي كان البشرُ فيها كروبوتات مبرمجين ومجبرين على الهُتاف "كلنا منحبك" وقلوبنا تقول "ارحل أرجوك".
تمنينا جميعنا أن يرحل الظلم وينقشع، وحتى الأمنية ظلت حبيسة القلب لعدم جرأة أحد بقولها، كان رفض الظلم سرنا الأوحد.
تتهامسُ النساءِ دوماً حول قصص الظلم، يمنعن من إعلاء صوتهن خوف أن يسمعهن أحد، فثمنُ الكلمة هو الروح والتأبيدُ في السجون!
كان العملاء في كل مكان، بائعون على الأرصفة وسائقوا تكاسي، وعاملوا نظافة، حيث نقول في سوريتي لأي أحد يتكلم "اسكت الحيطان لها أذان"، وفعلا كان كل ما حولنا يستمع لأدق تفاصيل أقوالنا.
تربينا في المدارس على "الله سورية بشار وبس"، تجرعناها على مدارِ سنوات، لم تخلوا مدرسة أو صف دراسي أو شارع من

صورته، وسميت الأحياء باسمه وأسماء عائلته وكأن البلد صار ملكاً لهم بالطابو الأخضر!

حتى ونحن صغارٌ في صفوفنا الأولى يروى لنا كيف أن القائد الخالد والد القائد الخالد "كما لقنونا" حرر الفلاحين من الظلم وصحح البلاد فنراه بنظرنا قائداً عظيماً وكأنه باتمان أتى ومحى ظلم المستضعفين، ولكن هيهات هيهات لم نكن نعلم أننا نحنُ المستضعفون، ومن قيل أنه منقذنا كانَ مُهلكنا.

تجرعنا البرمجاتِ هذهِ من طفولتنا حتى لا نفكر مجرد تفكير برحيله، بالفعل قد أسسوا عبيداً.

أذكر أن الناس لا تتجرأ حتى انتقاد ارتفاع الأسعار وكانت هذهِ بحد ذاتها تعتبر تُهمة وما أكثر كاتبين التقارير الذين كنا نقول عنهم باللهجة السورية "خطهم حلو".

هل رأيت أيها القارئ العزيز بأي مزرعة عبيدِ كنا نعيش؟

نعم كنا في سجنِ كبير، لا يفرق عن السجن العادي إلا أن مسامحته أكبر، ولكن هل يقوى القيدُ على الفكر؟ هيهات..

الثورة على القيد

ظللنا مكبلين والخوف هو ما اعتدنا عليه حتى العامِ 2011، أخبارٌ هزت العالم عن تونسي يحرقُ نفسه ليبدأ ما يسمى "الربيع العربي".
في درعا تحديداً طفل صغير يكتب على الحائط " إجاك الدور يا دكتور"، لتبدأ الثورة السورية في الشوارع تنادي بالحرية وبكل سلمية فتقابل بالرشاشات والقتل!
عاصمة الثورة مدينتي حمص، صوتُ شاب أصبح فيما بعد رمز الثورة "الساروت" يصدحُ في الأرجاء:
"جنة جنة يا وطنا، يا وطن يا حبيب يا أبو تراب الطيب حتى نارك جنة"
"طيب إذا منرجع بتوعدنا تسمعنا؟"
لتقوم بعدها كافة المحافظات بالمطالبة بالحرية على مدى ثلاثة عشر عاماً رحل فيها الكثير من الشهداء، أصبح آلاف الأطفالِ أيتاماً وآلافاً أخرى من النساء أرامل وثكالى والأصعب الذين فقدوا عزيزاً لهم وأصبح "قيد مجهول" أي أنه ذهب ولم يعد، لا يعلمون هل توفي، اعتقل، اختطف..
ويظلون على أمل انتظاره بدعواتٍ تعانق أرجاء السماء، حيث لا تكاد عائلة سورية تخلوا من عزيز راحل.
هجر الكثير من منازلهم، تركوها وتركوا أحلامهم وكنت أحد الأشخاص الذين هجروا أنا وعائلتي بعد وفاة والدي، تركنا منزلنا

لسنواتٍ عديدة وأصبحت كلمة "لاجئ" و"نازح" هي ما يصفُ السوريين.

ما الذنب الذي ارتكبناهُ لنتشرد ضمن بلادنا وخارجها؟ أهي كلمة حرية طالبنا بها؟ أوليس من حق الإنسان أن يحيى؟

وما معنى حياته وهو يفتقر لأبسط حقوقه؟

كثير من الحواراتِ داخل عقلي، والعديد من الأسئلة، محورها " حق الحياة"

سنوات الثورة مرت عصيبة لكن كلها أمل، لربما لا أريد ذكر تفاصيلها كي لا يتحول ما أكتب لتأريخٍ ممل، بل أريد إيصالاً مختصراً لشعورنا الذي عشناهُ خلال تلك السنوات.

فكً القيد

٨ ديسمبر
الليلة التي لم ينم بها أحد

كانت الميادين كمدٍ بحري يزحفُ ليغسل دنس الطغيان،
المآذن تؤذن "الله أكبر" انتصرنا، والناس في الميادين تقول "ارفع راسك فوق إنت سوري حر"
اختلط الفرح بالصدمة، أيعقل ثلاثة عشر عاماً من الاستبداد وتم تحرير سوريتنا في أيام؟
يالله ما هذا النصر الذي أيدتنا به؟
كان الذهول هو السائد مع ضحكة تختصر السنين، فقد تم تحرير حلب أولاً وأصبحت كمان نقول "صديق" ومن ثم حماة ومن ثم حمص العدية، وكل سوريتنا.
الأشخاص الذين هجروا أطفالاً ومراهقين وشباباً عادوا حاملين بنادقهم لتحرير أرضهم، من خرجوا بذل عادوا حاملين راية النصر مؤيدين بقوة الله لأصحابِ الحق.

عاد أولاد سوريتي رجالاً يحررونها من الطغيان، يبثون الفرحة في الأرجاء ويخرجون المعتقلين من سجون الظلم والاستبداد.

وقف العالم كله يبكي عندما حرروا مساجين المسلخ البشري "صيدنايا" لم يستطع أحد النوم من فظاعة المشاهد، سجن تحته سجون كثيرة وغرف مخفية، خرج الناس منه مجانين من هول ما رأوه، منهم من خرج بعد أربعين عاماً ومنهم من وجوده جثة، وفتاة دخلت عزباء فخرجت لديها ثلاث أطفال، لكن الأهم أن صفحة صيدنايا قد طويت ليشهد التاريخ مسلخاً بشرية لم يعترف يوماً بقداسة الإنسان.

وأخيراً تحرر الشعب السوري من قيوده وسيعود بإمكانه العيش، لا تقارير بعد الآن، لا أنا من طرف فلان.
لم يعد الشباب مضطراً لإفناء عمره من أجل شخص، وأصبحت كلمة "بيت خالتي" التي كنا نعني بها السجن في طي النسيان.
لن يعود هناك بائعون متجولون يتنصتون على أفكارنا، ولا رشاوي كل ما قررنا إقامة عمل نتعيش منه.
مشاهدٌ لآلاف السيارات تعود من الخارج، اللاجئ لم يعد لاجئ فقد تعافت أمه وعاد إليها.

عند تحرر سوريتي، بدا وكأن الزمان توقف ليشهد اللحظة بكُل تفاصيلها، هذا اليوم لم يكن مُجرد سقوطٍ لطاغية أو حتى رحيل نظام، بل حياةً جديدة لوطنٍ تألم حتى توقف نبضُه، ثم عاد فجأة للحياة.

شوارعٌ وبلداتٌ بأكملها عاشت عقوداً من الصمت، الآن تحولت لساحاتٍ من الفرح بالنصر.
وجوده كانت ملامحها تحملُ الخوف وآثار القمع تبدو الآن مشرقة وكأنما ولادةٌ جديدة.
أطفال تربوا وكبروا على قصص المعتقلات والفقد والاغتيالات والسجون والهمس لأول مرة يسمعون كلماتٍ بأصوات عالية: حرية، كرامة، عدالة اجتماعية.

البيوت التي هدمت قد قامت من جديد، ليس بالحجارة بل بحكاياتِ الناجين وأحلامِ من رحلوا، على كل جدار في سورية، على كل جدار من حمص مدينتي الحبيبة هناك أثرٌ لمعركة، والآن جميع الجدران تشهد على النصر، متأكدة لو أن لها أفواه لتكلمت وعبرت عن فرحتها.

نظرت إلى السماءِ فإذ بالطيورِ قد عادت لأعشاشها بعد أن هجرتها طويلاً، الآن يا سوريتي سماؤك ملكٌ للشعبِ لا للمدافع، حتى الأنهار التي اختلط ماؤها بدماء الشهداء عادت للتدفق نقية من جديد تروي الأرض طهراً وحرية.

لأول مرة نتنفس الهواء بانتعاش، كان جديداً، الهواء الخالي من الاستبداد كم هو منعش!

لم تكن هذه نهاية حكاية سوريتي بل بدايتها، حرفياً لم ينم أحد من الفرحة، نعم سوريتي تحررت، لكنها بحاجتنا نحن أبناء هذه الأرض الطاهرة لنكتب فصولها القادمة، فصولاً تليف بدماء شهداء هذه الأرض.

"اليوم فقط، لسنا شعباً يكافح حتى يتحرر، بل شعباً عرف معنى الحرية والعدالة ولن يقبل بسواهما بعد الآن"